تفـــــريط

للدكتور محمد يوسف موسى

تفريط نحس به حيث تكون ، ونحس به حيث تلتفت حولك . تفريط من كل طبقة وفريق : طبقة الطلاب ، وطبقة الشيوخ والأساتذة ، وطبقة السادة رجال الإدارة والرياسة. تفريط من كل هؤلاء وأولئك ، إلا من عصم الله وهم قليل نادر . ولولا ذلك ، لصار الأزهر منذ أزمان وأزمان تاريخا من التاريخ ، ولصار يتحدث عنه كما يتحدث عن كائن طالت به الحياة ، وأثر فيها وتأثر بها ، ثم صار أثرا بعد عين وعظة في الحاضر والمستقبل !

نعم ! ذلك حال الأزهر اليوم ، وقد نشأ أول أمره مقرا للدعاية لمذهب ودولة ، ثم — لفرط حيويته — تمرد على ما أوجد به وله ، فصار منارة عامة ترسل أشعتها هنا وهناك في أرجاء العالم الإسلامي ثم تقدم به الزمن فصار، فترة طويلة من التاريخ ، المعين الوحيد للمعرفة والعلم ، وصاحب الأثر الكبير في تصريف شؤون البلد والقول الفصل في المشاكل التي تجد. وكان من رجالاته من عرف التاريخ لهم فضلهم ، إذ عرفوا لأنفسهم كرامتهم وللعلم حقه ، حتى كان منهم من رفض أن يمد يده لصاحب السلطان، بعد أن لم يرحرجاً في أن يمد بحضرته رجله ! ثم مرت أزمان ، وجاءت أزمان ، وإذا بالأزهر لا يلتمس رأيه فيما يجب أن يكون له الرأي فيه ، حتى لقد غدا كما يقول الشاعر :

منها وإلى النهاية .

أن الأقدار تأتي بها مرة واحدة في حياة الشعوب والقادة ولن تتكرر مرة أخرى فمن العبث التردد والوقوف والتراجع إزاءها لأنها تخضع للمثل اللاتيني القائل .

Audaces Fortuna juvat

ان الحظ يبتسم دائما لأصحاب القلوب الجريئة والعزائم الصادقة

أحمد زمزى

مراقب عام مصلحة التشريع التجارى
والملكية الصناعية

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

وأحب قبل الكلام الجاد فيما أنا بسبيله ، أن أسارع فأطمئن المشفقين من الآباء الأوفياء والزملاء الأفاضل ، هؤلاء وأولئك الذين يخافون على عقبى صراحتي في زمن يتهم فيه كل صريح ، أنني ، علم الله ، لا أقصد بحديثي هذا رجال عهد معين قريب أو بعيد ، إنما أعني الأزهر ورجاله في هذا العهد الذي نعيش فيه منذ سنوات وسنوات . وأنسب بالذي يتقص إخلاصه نصيحة الأستاذ الأكبر عن أشد الناس حباً له واتصالا به . غير أني صريح بحكم منبتي وطبيعتي، وحديث عهد ببلاد تصدع بالحق متى عدبت له ، وأشعر في قوة بما على وعلى أمثالي من تبعات الأزهر الحاضره ومستقبله ، تبعات لا يفتأ الإخوان يذكروننا بها في كل مناسبة .

فليجهدا، إذاً ، بالآباء والإخوان المشفقون، فالله متم أمره ، ولن يقف حذر دون قدر . ولست بما أقول ، اليوم أو بعد اليوم ، إلا في مقام الناصح الأمين. وليس مثلي — وقد جاوز مثلي خمسين — بأقل من أن ينصح بما يراه حقا ، وليس إنسان مهما علا قدره بأكبر من أن يتقبل الرأي الحق يتقدم به ناصح أمين .

* * *

١ — لطلاب الأزهر في الكليات والمعاهد مطالب يضربون من أجلها عن الدروس فترة طويلة كل عام ، ويلحون في سبيل تحقيقها ملتمسين كل مايرون من سبل ووسائل . وهم جميعا لا يكلف أحدهم نفسه النظر فيما يطلبون : أحق كله ؟ أو يلتبس فيه الحق بالباطل ؟ وهل رائدهم الإخلاص فيما يرجون ؟ أو هي أصابع الفتنة تدفع بهم في غير الطريق السوى ؟

ويحاول هؤلاء الطلاب المساكين التماس عون أساتذتهم وشيوخهم فلا يجدون منهم إلا ازورارا وإعراضا ، لأنهم يخافون التهمة بتحريك الطلاب ، أو لأنهم لا يعرفون كيف يوجهونهم سواء السبيل . والمشيخة من ذلك في شيء من الحيرة والكرب؛ لا تقدم إلا إذا اشتد الخطب ، ولا تفور إلا تحت الضغط .

ولو كانت الأمور تجرى عندنا في الأزهر على استقامة ، لكان يسيرا كل اليسر على أولى الشأن في الكليات تعرف ما فيه الخير للطلاب في ثقافتهم ومستقبلهم ، والأهداف التي يجب أن يعدوا

الإعداد الطيب لبلوغها ، ووسائل تحقيق هذه الأهداف. وحينئذ لا يكون الطلاب ما يشكون منه ، وما يضربون عن دروسهم من أجله .

ولو كانت الأمور تجرى عندنا فى الأزهر على استقامة ، من الطلاب والأساتذة وأولى الأمر ، لكان للكليات « اتحاد » كاتحاد الكليات فى الجامعة ، ولكان هذا الاتحاد وسيط خير بين الطلاب والمشيخة ، ولكان وسيلة يمرن بها الطلاب على المشاركة فى إدارة شئونهم ، وعلى المسئولية والاضطلاع بها . ولكن كيف السبيل إلى تكوين مثل هذا « الاتحاد » ، ومن إليهم الأمر يظنون كل صيحة عليهم ، ويرون فى تكوين هذا « الاتحاد » بدء ثورة وانقلاب ؟! ثم كيف السبيل إلى مثل هذا « الاتحاد » ، ومن الشيوخ من يستحل اتخاذ الطلاب الأبرياء وسيلة لقضاء حاجة أو حاجات فى نفوسهم ! ومن أجل هذا يزور المدرسون عن الطلاب ، فلا يرى الطلاب — وقد حرموا التوجيه الصالح — إلا أن يصدروا عن عقولهم التى تنقصها الإحاطة بالأمور ، وعن خبرتهم وتجاربهم وهى ناقصة ، وعن مطالبهم الخاصة دون رعاية للحق أو للصالح العام فى نفسه .

٢ — وبعد الطلاب ، الذين شغلتهم الامتحانات والاستعداد لها عن مطالبهم ، جاء بكل أسف دور المدرسين والأساتذة .

نعم ! ها هى ذى المعركة حامية الوطيس بين فريق المدرسين فى المعاهد والكليات ، المعركة التى استعمل فيها كل سلاح وإن رغم الحن ! المعركة التى وصل أمرها للصحف والديوان الملكى وللبرلمان أخيرا كل فريق يدافع — على طريقته — عن حقه وكيانه ومستقبله ، ويرى كل الوسائل مشروعة ما دامت تحقق الغاية أو تدنى منها . وفيما بين هؤلاء وأولئك تضيع كرامة الأزهر ، وتتزلزل سمعته فى مصر والعالم الإسلامى كله .

ولو كانت الأمور تجرى فى الأزهر على ما ينبغى من عدل واستقامة لصدر منذ طويل « كادر التدريس » حين صدر القانون بإنشاء الكليات . وإذاً ، لعرف كل من أعضاء هيئة التدريس حقه ، ولوضع فى موضعه الذى تؤهله له دراسته وكفايته ، ولما كان من الممكن أن تقوم هذه الخصومة المنيفة بين الإخوة الزملاء أبناء المعهد الواحد ، ولشغل الكل بالبحث والإنتاج العلمى الذى تخلفنا فيه حتى صرنا ساقة بعد أن كنا القادة .

ذلك ما كان يجب أن يكون ، لولا اشتغال الرؤساء بالحاضر ، يصرفون مسائله فى ارتجال ، عن المستقبل — حتى القريب منه — بما لا بد منه من عدة ووسائل . ولله الأمر من قبل ومن بعد !

٣ — وفى الأزهر اضطراب شديد أيضا فيما يتصل بعدم تركز السلطان وتصريف الأمور فى المسئولين وحسدهم بحكم مناصبهم ، بل صار نصيب كبير من هذا إلى غير هؤلاء المسئولين ، فعظمت البلوى وعمت الشكوى .

ولو كانت الأمور تجرى عندنا على استقامة ، لأنشىء منذ زمن طويل مكتب فنى بالرياسة يكون لأعضائه من الثقافة والكفاية والروح الأزهرية والحب للصالح العام ، ما يجعلهم أهلا بحق لاقتراح المشروعات التى تفيد الأزهر ، ولبحث ما يحال إليهم من مشاكل ، ولتقديم المشورة الطيبة فيما يجد من أمور .

ولو كانت الأمور تسير عندنا على ما ينبغى ، لوضعت منذ طويل قواعد عامة للنقل للكليات ، ولكان من هذه القواعد ألا ينقل مدرس — مهما كانت درجته العلمية — من الثانوى لكلية من الكليات إلا إذا شهد له بالعلم والبحث مؤلفات منشورة

ولكن ؟ منع من هذا وذاك فيما مضى ، وربما يمنع منه أيضا هذه الأيام وفى المستقبل ، ما ركب فى النفس من حب الاستئثار بالبت فى كل أمر وبالاعطاء والمنع . ولعل الله ينظر للأزهر نظرة رحمة فيغير من هذا كله .

٤ — وقد نظر الله للأزهر فى بعض ما مر به من عهود ، فألهم القائم بأمره حين ذاك — وهو المغفور له الأستاذ الشيخ المراغى — أن يرسل بعوثا لأوربا يقتبسون من علم الغربيين وطرائقهم فى البحث والدرس ! ومضى الزمن ، وعادت البعوث من فرنسا وألمانيا وانجلترا ، وانتظر الناس أن ينتقل الأزهر خطوة إلى الأمام ؛ وحق لهم أن ينتظروا فى ثقة واطمئنان . ولكن ، ها هو الزمن يمر ، وها هو الأزهر فى جملته يسير نفس سيرته قبل أن يكون له أعضاء بعثات جمعوا بين ثقافة الشرق والغرب . نعم ! ها هو الأزهر لا يزال كما تعهد من قبل فى مناهجه وطرائق التدريس فيه وعدم غنائه فى علوم الدنيا والدين .